قَصِيدَةُ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السَّلام

بقلم
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقًا)
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

وقف على معهد الدراسات القرآنية للبنات
بمكة المكرمة
العنوان: ١٣ شارع الحضارة. الرصيفة
خلف مسجد الأمير أحمد بمكة المكرمة
ص.ب ٩٥٠٩، مزبريدي ٢١٩٥٥
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف المرسلين، سيِّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا العمل بعنوان: قصيدة يوسف الصدّيق عليه السلام، عبارةٌ عن قصيدة رائيّة من بحر الرمل تقع في ٣٠٦٦ بيتاً، مطلعها:

يوسفُ الصدّيقُ فاقَ القمرا ... ليلةَ النصفِ بأفقٍ عبرا

وتسبقُ القصيدةَ تمهيدٌ يتسلّطُ الضوءَ عليها، مع أنّ التمهيدَ كُتِبَ بعد القصيدة. والقصدُ من كلٍّ منهما الإيماءُ والإحاطة.

والحقيقةُ أنّ هذا العملَ هو الرابعُ المتعلّقُ بيوسف عليه السلام. الأوّل كتابُ الوحدةِ الموضوعيّةِ في سورة يوسف عليه السلام الذي طُبِعَ عام ١٣٩٤هـ، والثاني محاضرةٌ مستلّةٌ من هذا الكتاب بعنوان: الدروسُ المستفادةُ من شخصيّة يوسف عليه السلام، أُلقيتْ في الموسم الثقافيّ لرابطة العالم الإسلاميّ عام ١٣٩٢هـ، والثالث: تفسير السورة الكريمة ضمن سلسلة التفسير البسيط للقرآن الكريم.

وقصيدةُ يوسف الصدّيق عليه السلام والتمهيدُ يبيّنان حياةَ يوسف عليه السلام، والدروسَ والعبرَ من سورة يوسف عليه السلام المكّيّة الكريمة. وبالإضافة إلى ترسيخ السورة الكريمة أُسُسَ العقيدة، شأنَ المكّيّ من القرآن الكريم الذي نزل قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة، تُعْنَى السورةُ الكريمةُ بشقّيها القصصيّ والتعقيبيّ بتثبيت فؤاد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. الشقُّ القصصيُّ بطريقٍ غيرِ مباشر، إذ ينصرُ اللهُ تعالى يوسفَ عليه السلام في كلّ مراحل حياته، ويُتوّجُ النصرُ بالتئام شمل آل يعقوب في مصر، بعد أن تشتّتَ في الشام. والشقُّ التعقيبيُّ بطريقٍ مباشر، إذ فيه ذِكرُ الأممِ المكذّبةِ التي دمّرها اللهُ تعالى

تدميرا. ونوشك أن تكون نهاية كفار مكة مماثلة، إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات الأوان.

لقد سار التمهيد والقصيدة مع سورة يوسف عليه السلام في ذكر حياته عليه السلام، والدروس والعبر المستفادة من السورة الكريمة.

ومما عُنيت به القصيدة والتمهيد بيان صور الصبر والشكر لدى كل من النبيين الكريمين، ومظاهر الفضل من الله تعالى عليهما معا، حتى انتهى الحال باجتماع آل يعقوب في مصر، وتأويل رؤيا يوسف في قصر يوسف عليه السلام عزيز مصر، وهي الرؤيا التي رآها، وقصها على والده نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام، حينما كان يوسف طفلا صغيرا.

وقد كان اهتمام هذا العمل كبيرا بمعجزات النبيين الكريمين، وبنبوة يوسف عليه السلام وصوف السجن، وبما تم اكتشافه من قطرة للعين قرآنية، نالت براءتي اختراع عالميتين. وهذه القطرة مأخوذة من عرق الإنسان، ومستفادة من معجزة يوسف عليه السلام، بإلقاء قميص يوسف على وجه أبيه يعقوب عليه السلام الأعمى فيرتد بصيرا.

والله تعالى أسأل أن يتقبل بقبول هذا العمل، وينفع به، ويثيب عليه، إنه جواد كريم: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين﴾ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

أصيل يوم الثلاثاء ١١/٧/١٤٣٤هـ د. حسن محمد باجودة

الموافق ٢١/٥/٢٠١٣م أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقا)

مكة المكرمة جامعة أم القرى بمكة المكرمة

تمهيد

نود من هذا التمهيد أن نشير بإيجاز إلى بعض الأمور، التي لها علاقة ما على نحو من الأنحاء، بالقصيدة، والتي تسلط الضوء على بعض معانيها ومغازيها، التي تعتمد أساسا، على سورة يوسف الصديق عليه السلام، من القرآن الكريم. وسنشير آخر، ما أمكن، الإيماء إلى تلك الأمور، حسب ترتيب ورودها في السورة الكريمة.

١- جاء آدم عليه السلام، بدين الإسلام لله تعالى رب العالمين.

٢- بعث الله تعالى جميع النبيين والمرسلين بدين الإسلام لله تعالى رب العالمين، أي بإفراد الله تعالى بالعبادة. ومسألة التوحيد هي الهدف الذي جاء من أجل تحقيقه كل المرسلين والنبيين، عليهم جميعا صلوات الله تعالى وسلامه. وإن اختلفت الشرائع والأحكام. وفي هذا المعنى جاء قول الله تعالى في سورة المائدة (١): ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ والشرعة والشريعة، بمعنى أول الطريق الذي تسير فيه، وبمعنى الغاية، والماء الغزير، وشريعة الإسلام وشرعته. أما المنهاج فهو الطريق الواسع السهل،

---

(١) الآية رقم ٤٨

الواضح، البيّن، من المحسوسات، والمنهج الواضح في المعنويّات. وكلٌّ من الشِّرعة، وأوّل الطّريق، والطّريق الواضح البيّن، يفضيان إلى النّهاية الواضحة، والشِّرعة الغزيرة، والشّريعة الصّحيحة، وهي توحيد الله تعالى (١)

وهذه المعاني بيّنها الحديث النّبويّ الشّريف، رَوَى الإمام البخاريّ في صحيحه (٢) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: أنا أَوْلَى النّاس بعيسى ابن مريم في الدّنيا والآخرة. والأنبياء إخوةٌ لِعَلّاتٍ، أُمّهاتُهم شتّى ودينُهم واحد.

ومعنى القول: أنا أَوْلَى النّاس بعيسى ابن مريم، أنا أخصّ النّاس به، وأقربُهم إليه، لأنّه بشّر بأنّه يأتي من بعده (٣) هذا إلى أنّه ليس بينهما نبيّ. وهذا المعنى جاء في الحديث الّذي رواه البخاريّ (٤) في صورته الأخرى: "ليس بيني وبينه نبيّ"

---

(١) بيّنّا هذه المعاني بإسهاب في: تأمّلات في سورة المائدة ٢٧٤-٢٧٦ والتّفسير البسيط للقرآن الكريم ٦/ ٢٥١ و ٢٥٢

(٢) فتح الباري ٦/ ٤٧٨ حديث رقم ٣٤٤٣

(٣) فتح الباري ٦/ ٤٨٩

(٤) فتح الباري ٦/ ٤٧٧ حديث رقم ٣٤٤٢

وأولاد العلّات، بفتح العين، الإخوة من الأب وأمّهاتهم شتّى (١) ومعنى الحديث أنّ أصل دينهم واحدٌ وهو التّوحيد، وإن اختلفت فروع الشّرائع (٢)

٣- نوحٌ عليه السّلام الأبُ الثّاني للبشريّة.

٤- إبراهيم عليه السّلام أبو النبيّين من بعده أجمعين. وله عليه السّلام ولدان اثنان. الأكبر إسماعيل عليه السّلام، وهو جدّ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم. والأصغر إسحاق عليه السّلام. وهو أبو يعقوب عليه السّلام. وليعقوب عليه السّلام اثنا عشر ولدًا ذكرًا. الحادي عشر منهم يوسف عليه السّلام. وهو النّبيّ الوحيد بين الاثني عشر أخًا. وأصغر الإخوة بنيامين. وأمّ يوسف وبنيامين واحدة. واسمها راحيل (٣)

وكلٌّ من هؤلاء الأبناء الاثني عشر أبٌ لقبيلة، هم الأسباط. ومن هؤلاء الأسباط كلّ أنبياء بني إسرائيل ورسلهم. وأكبرهم موسى عليه السّلام. وآخرهم عيسى عليه السّلام.

---

(١) فتح الباري ٦/٤٨٩
(٢) فتح الباري ٦/٤٨٩
(٣) قصص الأنبياء ١٥٤

٥ - يوسف عليه السلام هو ابن يعقوب عليه السلام، ابن إسحاق عليه السلام، ابن إبراهيم عليه السلام.
جاء في صحيح البخاري (١) عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

٦- جاء في حديث الإسراء والمعراج الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢) عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في السماء الأولى آدم عليه السلام، ورأى في السماء الثانية ابن الخالة، عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، عليهما السلام. ورأى في السماء الثالثة يوسف عليه السلام، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن».

٧- سورة يوسف عليه السلام من المكي من القرآن الكريم الذي نزل قبل الهجرة (٣) وترتيب السورة الكريمة الثانية عشرة في المصحف الشريف.

---

(١) فتح الباري ٨/٣٦١ حديث رقم ٤٦٨٨ وانظر الحديث في روايته الأخرى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه فتح الباري ١١/٣٦٩ حديث رقم ٦٤٨٩ و٦/٤١٤ حديث رقم ٣٣٧٤ و٦/٤١٧ حديث رقم ٣٣٨٣ وجاء حديث ابن عمر في ٦/٤١٩ حديث رقم ٣٣٩٠
(٢) ١/١٤٥ و١٤٦ حديث رقم ٢٥٩
(٣) الإتقان ١/٤٣

٨ - جاء اسم يوسف عليه السلام في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرّة . منها خمس وعشرون مرّةً في سورة يوسف، ومرّةً واحدةً قبلها وذلك في الآية الكريمة الرابعة والثمانين من سورة الأنعام ، ومرّةً واحدةً بعدها وذلك في الآية الكريمة الرابعة والثلاثين من سورة غافر (١)

٨- تنصّ الآية الكريمة الثالثة من سورة يوسف عليه السلام على أنّ الحقّ جلّ وعلا يقصّ على حبيبه محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، في القرآن الكريم ، أحسن القصص. قال تعالى : ﴿ نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ وكلّ الشخصيات في سورة يوسف سعيدة. ومن بينها شخصيّة الخبّاز الذي صُلب وأُكلت الطير من رأسه، لأنّه قبل أن يُؤخذ الحقّ منه بقتله وصلبه أسلم لله تعالى ربّ العالمين ، على يد يوسف عليه السلام .

٩ - تتألّف سورة يوسف عليه السلام من شقّين اثنين . الشقّ القصصيّ الطويل ، والشقّ التعقيبيّ القصير . ويهدف كلٌّ منهما إلى تسلية النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . الشقّ القصصيّ يحقّق التسلية بطريق غير مباشر وذلك بالتئام شمل آل يعقوب عليه السلام في مصر،

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

والشق التعقيري يحقق التسلية بطريق مباشر، وذلك بحديثه عن الأقوام الماكرين الذين أهلكهم الله تعالى. وتوشك أن تكون نهاية كفار مكة مماثلة إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات الأمان.

١٠- يدور القسم القصصي في سورة يوسف عليه السلام على رؤيا يوسف عليه السلام، التي قصها على والده يعقوب عليه السلام، على نحو ما جاءت في الآية الكريمة الرابعة. قال تعالى: ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ والشمس والقمر والداه، والأحد عشر كوكبا إخوان يوسف الأحد عشر. وقد جاء تأويل الرؤيا في الآية الكريمة تمام المئة. قال تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا﴾ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي. إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾

١١- يوسف عليه السلام، الذي تفرس فيه والده يعقوب عليه السلام النباهة، وتفوقه على إخوته جميعا، قد أكدت رؤيا يوسف التي قصها على والده تلك النباهة. لقد خشي يعقوب عليه السلام من إخوته الذين يكبرونه على جهة

الخصوص، لما أنها كانت في نظر يعقوب المبشّر بما سيئول إليه حال يوسف لاحقاً من نِعَم عظيمة، ومن تعليم تعبير الرؤى، ومن تمام النعمة على آل يعقوب بنبوّة يوسف، ولذا حذّر يوسف من قصّ رؤياه على إخوته خوف الحسد، بباعث النفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم. لقد أومأت إلى هذه المعاني الآيتان الكريمتان الخامسة والسّادسة من سورة يوسف. قال تعالى: ﴿قال يا بُنَيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً. إنّ الشّيطان للإنسان عدوٌّ مبين. وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق. إنّ ربّك عليمٌ حكيم﴾

١٢- على الرّغم من كون يوسف لم يقصّ على إخوته رؤياه إلّا أنّ الشّيطان الرّجيم استطاع أن يوظّف النّفس الأمّارة بالسّوء للإخوة فدبّروا في التّخلّص من يوسف. وقد انقسم الإخوة العشرة إلى ثلاث فِرَق. فِرْقَة ترى قتله بطريق مباشر، وفِرْقَة ترى قتله بطريق غير مباشر، وذلك بطرحه فريداً في أرض بعيدة مليئة بالذّئاب كي تفترسه. والأخ الأكبر الّذي وضع الله تعالى في قلبه الودّ الضّروريّ ليوسف، كي يرفض الرّأيين، ويجعلهما قتلاً، حتّى ولو نجا يوسف حين طرحه في الأرض المخوفة. واقترح إلقاء يوسف في

غيابة الجبّ، وهو البئر غير المطويّة، كي يلتقطه بعض المسافرين. وبذلك يتخلّصون من يوسف دون قتله. واللطيف في الأمر بشأن الإخوة التسعة أصحاب الرّأيين، النّزول سريعًا إلى رأي الأخ الأكبر الأخفّ ضررًا. بل إنّ أصحاب الرّأي بقتل يوسف يكتفون بإبداء الرّأي ويريدون من الآخرين التّنفيذ. وكذلك أصحاب الرّأي الثّاني بل إنّ الفريقين يتحدّثان قبل التّنفيذ عن العودة قومًا صالحين، بعد أن يستغفروا الله ويتوبوا توبةً نصوحًا. بل إنّا نلاحظ على الأخ الأكبر الاستعداد للتّخلّي عن فكرة التّخلّص فأيّ صورةٍ من الصّور، إذا تخلّى الفريقان عن الفكرة أساسًا. وإلى هذه المعاني أشارت الآيات الكريمات من السّابعة إلى العاشرة من سورة يوسف. قال تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين. إذ قالوا ليوسفُ وأخوهُ أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عُصْبَةٌ إنّ أبانا لفي ضلالٍ مبين. اقْتُلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين. قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجُبّ يلتقطه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين﴾

١٣- أنبياء الله تعالى لا يقولون إلّا الصّدق. وحاصوا يعقوب عليه السّلام يقول لأبنائه الّذين طلبوا أخذ يوسف معهم في نزهة وهم ينوون التّخلّص منه،

يقول لهم كما جاء في الآية الكريمة الثالثة عشرة: ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾.

١٤- الله تعالى مع العبد المُبْتَلَى يوسف عليه السلام دائمًا وأبدًا. إنه حينما جعله إخوته العشرة في غيابة الجب أوحى الله تعالى إليه، كما جاء في الآية الكريمة الخامسة عشرة: ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾. وحينما ذهبت الإخوة بعد تنفيذ الجريمة جاءت على الفور قافلة تحتاج الماء من الجب، فأرسلت واردها الذي عاد إليها بالماء وبالغلام يوسف عليه السلام. وشاء الله تعالى أن تتجه إلى مصر التي سيكون يوسف عزيزها. وحينما باعوه بقصد التخلص منه اشتراه عزيزها الذي أمر زوجته بإكرامه، بل بإكرام مكانه في القصر. وقد تفرّس العزيز في يوسف، ووجد فيه ضالته، لعل يوسف أن ينفعه مستقبلًا، بل أن يتخذه ولدًا، وهو الذي ليس له ولد. وقد جاء تعقيبًا على هذه المعاني في الآية الكريمة الحادية والعشرين قوله تعالى: ﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث. والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾. والمراد بالأرض هنا أرض مصر(١).

(١) التفسير البسيط ١٢/١٧٢.

والمراد بتعليمه من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى (١)
ولما بلغ أشده، ومنتهى شدته وقوته من شبابه
وحِدَّته (٢) وأدرك الحُلُم (٣) آتاه الله تعالى الحكمة
والعلم اللذين جزاء إحسانه. جاء هذا الآية الكريمة
الثانية والعشرين قوله تعالى: ﴿ولما بلغ
أشده آتيناه حكمًا وعلمًا. وكذلك نجزي
المحسنين﴾ وحينما استعاذ بالله تعالى مما
تدعوه إليه امرأة العزيز من فجور بها وهمت
به، صرف الله تعالى عنه همّه النفسيّ بأن
أراه عز وجل البرهان الذي لا نعرف حقيقته،
ولكن الله تعالى صرف به عنه السوء بمعنى
الخيانة (٤) والفحشاء بمعنى الزنى (٥) لأن يوسف
من عباد الله تعالى المُصْطَفَيْنَ الأخيار. وحينما
فرّ من المرأة قدّت قميصه من خلفه فكان
الشاهد على براءته. وحينما اتّهمته أمام زوجها
بإرادة السوء بها قيّض الله تعالى الشاهد من
أهلها، الذي جعل قدّ القميص شاهدًا. فإن قدّ
من أمامه ثبتت براءتها لأنها دافعت عن نفسها،

---

(١) التفسير البسيط ١٢/٢١٨
(٢) تفسير الطبري ١٢/١٠٥
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٠٦
(٤) الجلالين
(٥) الجلالين

وإن قدّ من خلفه ثبتت براءته لأنّه فرّ منها. وهكذا ثبتت براءة يوسف عليه السّلام. وبذلك أُسْدِل السّتار على هذه الفضيحة في هذا المجتمع الفاسد، وإنّما أُسْدِلَ السّتار لأنّ امرأة العزيز هي المتّهمة، وليس لأنّ يوسف هو البريء.

لقد أَوْمَأْتُ إلى كلّ هذه الألطاف من الله تعالى الآيات الكريمات من الخامسة عشرة إلى التّاسعة والعشرين.

١٥- امرأة العزيز كانت نَفْسُها الأمّارَةُ بالسّوء والشّيطانُ الرّجيم يحثّانها على التّمادي في الضّلال. إنّها تسمع ما قال النّسوة عنها في مراودتها عبدها يوسف، عتباد لهنّ كيدًا بكيد، ومكرًا بمكر. إنّها قد زيّنا لها وضع يوسف في كامل زينته في موضع في عمق البيت يوم الوليمة، بحيث إنّها حينما تأمره بالمرور على النّسوة يكون المرور بهنّ، والتّجوّل إليهنّ ذروحًا، طَوْعًا أو كَرْهًا. إنّه عبدٌ مأمور، أَمَرَتْه أن يخرج على النّسوة ففعل، وذلك في الوقت الّذي كنّ يقطّعن الأُتْرُجّ بالسّكاكين، فقطّعن أيديهنّ، وكَسَبَتِ الجولة، وتحوّل طلبها من يوسف أمرًا له، وإلّا فحقّه السّجن والصّغار. وإنّ القول: ﴿وقالت اخرج عليهنّ﴾ من الوحي الّذي لا يفطن له مخلوق.

١٦- آثر يوسف عليه السّلام السّجن على ما تدعوه

امرأة العزيز والنسوة اللاتي شاركنها وزاحمنها في يوسف. لقد استجاب الله تعالى دعاء يوسف أن يصرف عنه كيد النسوة، كما استجاب له إيثاره دخول السجن على الخطيئة. جاء في الآية الكريمة الخامسة والثلاثين قوله تعالى: ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾

١٧- قدّر الله تعالى على يوسف عليه السلام أن يُسْجَنَ عدّة سنوات ظُلْمًا، عقابًا له على عفّته. ومع أكثر فضل الله تعالى عليه في السجن، ونومه سريعًا إلى هذه المظاهر من الفضل.

م- يدخل معه السِّجْنَ رِجْلًا برجل، فتيان في مثل سنّه، ويكونان بإذن الله تعالى السبب في خروجه عليه السلام من السجن.

ب- يوسف عليه السلام هو دائمًا وأبدًا الرجل المحسن، الذي بلغ بفضل الله تعالى مرحلة الإحسان، أو مرتبة التقوى.

حـ- تتجلّى معجزة يوسف عليه السلام في تعبير الرؤى.

د- يرى كلٌّ من ساقي الملك وخبّازه رؤيا، ويطلبان من يوسف عليه السلام تأويلها.

هـ- يدعوهما يوسف عليه السلام إلى الإسلام بين يديْ تعبير الرؤيا.

و- يُنبّأ يوسف عليه السلام في السجن. وها هو ذا يعيّن للفتيين كلّ أسماء الطعام الذي سوف يأتي

إليهما. وهذا التعيين للطعام بإيحاء من الله تعالى أوّل دليل في السّورة الكريمة على أنّ يوسف عليه السّلام يُصْبِحُ نبيّا.

ز - يكرم الله تعالى الفتيين باعتناق دين الإسلام على يد يوسف عليه السّلام.

ح - يعبّر يوسف عليه السّلام رؤيا الفتيين بصراحة. فالسّاقي يعود إلى عمله ساقيا لملك البلاد، أمّا الخبّاز فيُصْلَب فتأكل الطّير من رأسه. وهذا التّعبير للرّؤيين هو الّذي جرى في دنيا الواقع.

ط - طلب يوسف من السّاقي أن يذكره عند سيّده الملك حينما يعود إلى عمله، فأنساه الشّيطان أن يذكره، فلبث في السّجن بضع سنين.

ى - رأى الملك رؤيا عجز الجميع عن تأويلها، وهنا فقط يتذكّر السّاقي صديقه يوسف المعبّر للرّؤيا الّذي نسيه عدّة سنوات.

ك - لم يبخل يوسف على السّاقي بتعبير الرّؤيا. بل إنّه تطوّع بإبلاغ السّاقي ما أوْحَى الله تعالى إليه من علم العام الخامس عشر الخارج عن سبع سنين الرّخاء، وسبع سنين الشّدّة.

ل - طلب الملك أن يأتوه بيوسف الّذي أصرّ على ثبوت براءته. ومَسّ المسألة بخُلُقه العظيم. فثَبَتَتْ براءته عليه السّلام. وتوّجَتْ بإعلان امرأة العزيز براءته، وأنّها هي الّتي راودته عن نفسه، وأنّه من الصّادقين. وبعد ثبوت براءته استجاب لدعوة الملك بأن يجيء إليه.

لقد غطّت هذه الأحداث الآيات الكريمات من سورة يوسف عليه السّلام من السّادسة والثّلاثين، إلى الثّالثة والخمسين.

١٨- لقد طلب ملك مصر من الملأ أن يأتوه بيوسف عليه السّلام كي يستخلصه لنفسه. استجاب يوسف عليه السّلام لطلب الملك، فلمّا كلّمه الملك عبّر له عن امتنانه لمكانته وأمانته. وهنا يرشّح يوسف عليه السّلام نفسه لمنصب الشّاغر آنذاك، منصب عزيز مصر، لأنّه بوحيٍ من الله تعالى هو الحفيظ العليم. وهكذا أصبح يوسف عزيزَ مصر، ومكّن الله تعالى له في أرض مصر كِفاءَ إحسانه، ووفّقه الله تعالى في مجال الدّين بالدّعوة إلى الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، وفي مجال الدّنيا، حيث وظّف نعم الله تعالى عليه في إتقان العمل خلال سبع سنين الرّخاء، وسبع سنين الشّدّة.

١٩- من مظاهر إعجاز القرآن الكريم مجيء لفظ الملك في هذه السّورة المكّيّة الكريمة الّتي تحدّثت عن أحداث وقعت في مصر، في حين تحدّثت السّور الأخرى عن فرعون موسى عليه السّلام. لقد جاء لفظ الملك في حجر رشيد الّذي جاء فيه لفظ الملك، في أثناء الحديث عن أحد ملوك الرّعاة الهكسوس ويسمّى ملكهم طليموس(١) وهذا الحجر يؤرّخ إلى فترة مجيء يوسف

(١) انظر- مثلاً- الموسوعة العربيّة الميسّرة بطليموس، رشيد الهكسوس.

عليه السلام إلى مصر.

ومما أكرم الله تعالى به يوسف عليه السلام اكتشاف نظام التواعير لري الأراضي المرتفعة عن مستوى نهر النيل. لقد وشى الحساد بيوسف لدى الملك زاعمين أنه لم يفعل شيئاً لري الأراضي المرتفعة، فهداه الله تعالى إلى عمل التواعير أو السواقي. وقد سميت في القصيدة الناعورة والساقية يوسفة، لأنه هو الذي اخترعها فقلت: (١)

سميها يوسفة أو سمها: إن تشأ ناعورة لن تخسرا

٢٠- في سني سبع الشدة عم الجدب العالم المسكون آنذاك بما فيه ذلك الشام. ومن الذين عضهم الجدب يعقوب عليه السلام وآله. وقد ذاع في العالم كله آنذاك تموين عزيز مصر كل وافد عليه بحمل بعير من القمح. سمع إخوة يوسف بذلك، فجاء قسترة منهم إلى عزيز مصر طلباً للميرة، وهم العشرة الذين وضعوا يوسف في غيابة الجب. طلب يوسف من إخوته الذين عرفهم ولم يعرفوه أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنهم جاءوا إليه طلباً للميرة وليسوا جواسيس ضد بلاده.

٢١- ألهم الله تعالى يوسف عليه السلام النبي المصطفى المختار أن يضع في رحل كل واحد من إخوته مع الحب الذي اشتراه الثمن الذي دفعه للحب، كي يستعينهم على المجيء

(١) البيت رقم ١٦٥٢

إليه، ومعهم شقيقة الأصغر بنيامين. وبفضل الله تعالى كان وضع الثمن من الرجال سببًا في العودة إلى مصر، وهم الذين لم يستحلوا حرامًا، ومعهم أخوهم من أبيهم بنيامين، شقيق يوسف. وكان لحمل البعير من القمح الذي يؤتيه يوسف لكل من قدم عليه، دور في رضا يعقوب عليه السلام بعث بنيامين مع إخوته، وذلك بعد أخذ الموثق منهم بأنهم لا يريدون ببنيامين أخيهم شرًا.

٢٢- يعقوب عليه السلام العادل مع أبنائه فيما يملك يطلب منهم أن يدخلوا مدينة مصر من أبواب متفرقة، وليس من باب واحد، وهذا مما أوحى الله تعالى به إليه. وقد فعل الأبناء ذلك.

٢٣- عرّف يوسف شقيقه بنيامين بنفسه. وقد كانت مصر مكان تأويل رؤيا يوسف عليه السلام، وقد أوحى الله تعالى إليه بانتقال يعقوب عليه السلام وآله من الشام إلى مصر، وكان يوسف وشقيقه والأخ الأكبر نواة الأسرة التي سوف تنتقل إلى مصر. ولقد تم بإيحاء من الله تعالى التخطيط لبقاء بنيامين في مصر لذا تم الاتفاق على وضع صواع الملك والمكيال الذي يكال به القمح، والذي كان الملك يشرب فيه الخمر، ولذلك هو من خالص الذهب، تم الاتفاق على وضع الصواع في رحل بنيامين، والإعلان بعد تحرك القافلة،

عن سرقة الصُّواع.

لقد كانت خطّة الشّقيقين مُحكمة، خاصّة وأنّها من جنس الخُطّة السّابقة النّاجحة، وذلك بوضع ثمن القمح في رحال الإخوة، وهي خطّة عجّلت بعودة الإخوة إلى مصر، ومعهم بنيامين، شقيق يوسف. ولكنّ هذه الخطّة الثّانية ناقصة، ولم تفطن الشّقيقان إلى نقص الخطّة وعدم نجاحها إلاّ بوحي من الله تعالى. إنّ نجاح الخطّة يتوقّف على رضا الإخوة بتنفيذ حدّ السّارق في الشّريعة الإبراهيميّة، الّتي تقضي باسترقاق السّارق مدّة عام واحد، وليس تنفيذ حدّ السّارق في القانون المصريّ الوضعيّ، الّذي يقضي بتغريم السّارق مثلَيْ ثمن المسروق. إنّ الحقّ جلّ وعلا هو الّذي ألهم يوسف عليه السّلام وكاد له عند الإخوة العشرة الّذين وضعوه في غيابة الجبّ. وها هو ذا يوسف ينفّذ الخطّة، ويسأل الإخوة عن نوع الحكم الّذي يرضون تطبيقه في حال ثبوت تهمة السّرقة في حقّ واحدٍ منهم. إنّ الإخوة يختارون تنفيذ حكم الشّريعة الإبراهيميّة. وهكذا نجحت بعونٍ من الله تعالى الخطّة. وإلى تخيير الإخوة، ونجاح الخطّة بعونٍ من الله تعالى وإيحاء، أشارت الآيات الكريمات من سورة يوسف من الرّابعة والسّبعين، إلى السّادسة والسّبعين. قال تعالى:

﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين. قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه. كذلك نجزي الظّالمين.

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثمّ استخرجها من وعاء أخيه. كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلّا أن يشاء الله. نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم ﴿

ومعنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم، قال المكلّفون بالبحث عن الصّواع واسترداده: فما جزاء السّارق، وما نوع الحكم الّذي ترتضونه في حقّه، إن ثبت أنّكم كاذبون، وأنّ السّارق منكم. قال الإخوة: جزاء السّارق الّذي وُجِدَ الصّواع في رحله هو ذلك الجزاء الّذي وُضِعَ حدّاً للسّارق في الشّريعة الإبراهيميّة. كذلك نجزي الظّالمين بالسّرقة، بأن يُسْتَرَقّ السّارق مُدّة عام. فبدأ يوسف بتفتيش أوعية الإخوة العشرة، قبل تفتيش وعاء شقيقه بنيامين. ثمّ استخرج السّقاية من وعاء أخيه. كذلك كدنا ليوسف، وهكذا أوحينا إليه سؤال الإخوة عن الحكم الّذي يرتضون فاختاروا الحكم من الشّريعة الإبراهيميّة. ما كان ليوسف أن يأخذ شقيقه ويستبقيه في مصر لو نفّذ حكم ملك مصر، الّذي يكتفي بأخذ مثلَيْ قيمة المسروق. لكنْ شاء الله تعالى أن يأخذ أخاه بتخييره الإخوة، واختيارهم حكم الشّريعة الإبراهيميّة. نرفع درجات من نريد رفع درجاته حتّى مرتبة النّبوّة ومرحلة الرّسالة. وفوق كلّ ذي علم من البشر عليم، هو الله تعالى الّذي أحاط بكلّ شيء علما.

٧٤ - ثبوتُ تهمة السرقة على بنيامين فجّر حقد الإخوة على يوسف وشقيقه، فذهبوا إلى القول بأنّ بنيامين إن يسرق اليوم فقد سرق أخوه من قبل. لقد جعلوا الكلام غامضًا، كي تكون السرقتان من نوع واحد، مع أنّ المقصود هو حقّ يوسف استيلاؤه الكامل على قلب أبيه يعقوب عليه السلام. لقد أعان الله تعالى يوسف عليه السلام فكتم غيظه، وقال في نفسه أنتم شرٌّ مكانًا، والله تعالى أعلم بحقيقة قولكم الكاذب. لقد أومأتُ إلى هذه المعاني الآية الكريمة السابعة والسبعون، قال تعالى: ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل، فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبدِها لهم، قال أنتم شرٌّ مكانًا والله أعلم بما تصفون﴾ ومعنى جملة يصفون في القرآن الكريم كلّه: يكذبون.

٧٥ - بعد اندفاع الإخوة عاطفيًا، على نحو ما جاء في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل﴾ عادوا إلى تحكيم العقل، وتفكّروا في حالهم بعد تلقّي النبأ الجلل، فطلبوا من العزيز أن يأخذ واحدًا منهم بدلًا من بنيامين فرفض بشدّة. جاء في الآيتين الكريمتين الثامنة والسبعين والتاسعة والسبعين قولُه تعالى: ﴿قالوا يا أيها العزيز إنّ له أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين. قال معاذ الله أن نأخذ إلّا مَن وجدنا متاعنا عنده إنّا إذن لظالمون﴾

٢٦- بعد أن تمكّن اليأس منهم أن يستجيب يوسف لطلبهم، اجتمعوا منفردين في ناحية. وهنا انفجر الأخ الأكبر، صاحب الاقتراح بوضع يوسف في الجبّ، مذكّرًا الإخوة بالموثق الذي أخذه والدهم منهم، مؤنّبًا لهم على تفريطهم من قبل في أخيهم يوسف، متّخذًا القرار الصّارم بالبقاء في مصر حتّى يأذن له أبوه بالعودة، أو حتّى يحكم الله تعالى له بالعودة إلى أبيه بعد نيل بنيامين حُرّيّته، وربّما بعد العثور على يوسف.

يواصل الأخ الأكبر حديثه، فيأمر الإخوة بالرّجوع إلى أبيهم في فلسطين، وإبلاغه النّبأ الجلل، والاعتذار عمّا بدر منهم من إيقاء الموثق، ولكن حدّث ما لا يدَ لهم فيه. ويومئ إلى الشّهادة في هذه القضيّة، ففي إمكان يعقوب عليه السّلام أن يسأل، إن شاء، أهل قرية مصر، والقافلة الّتي أقبلوا معها، دليلاً على صدقهم.

٢٧- لم يصدّق يعقوب أبناءه، وعبّر عن رجائه في الله تعالى أن يُعيد إليه كلّ أبنائه الثّلاثة. لقد ازداد إيمانُ يعقوب عليه السّلام في ربّه عزّوجلّ، وازداد حُزْنُه وأسَفُه على يوسف على وجه الخصوص، وازداد بكاؤه حتّى ذهب الدّمع بكلتا عينيه، هذا إلى امتلاء نفسه بالحُزْنِ المُقيم. لقد تأثّر الأبناء كثيرًا بحال يعقوب عليه السّلام، وأعلنوا عن تعجبهم من استمرار ذِكْرِهِ يوسف حتّى يكون شديد المرض أو من الهالكين فعلاً.

لقد عبّر يعقوب عليه السّلام عن شكواه لله تعالى، وبيّن لهم بصريح اللّفظ أنّه يعلم من الله تعالى ما لا يعلمون. ويأمر يعقوب أبناءه بأن يذهبوا ويبحثوا عن يوسف وشقيقه، وينهاهم وهم المؤمنون عن اليأس من رحمة الله تعالى. وتَسْكُتُ الإخوة، وهذا دليلٌ على أنّ لهم يدًا في غياب يوسف، وهذا أوّل اعتراف منهم بأنّهم المسئولون عمّا حلّ بيوسف، ويترجم الإخوة السّكوت والاعتراف عمليًّا بالسّفر إلى مصر.

٨٢- لم يَجِدِ الإخوة مكانًا يذهبون إليه سوى مصر، ولم يجدوا شخصًا يقصدونه سوى عزيزها. وما أشدّ ذُلّهم، وفقرهم، وحاجتهم إلى الطّعام، بل إلى وفاء الكيل، بل إلى أن يتصدّق العزيز عليهم. لقد أوحى الله تعالى ليوسف عليه السّلام بأنّه آن الأوان لأن يكشف لإخوته عن شخصيّته. وقد كان تأثّر يوسف بحال الإخوة العصيب كبيرًا. وقد كان في قوله وفعله مع إخوته ذلك النّبيّ الكريم، ذا الخُلُقِ العظيم. لقد مَنَّ الله تعالى على يوسف عليه السّلام بكلٍّ من النّبوّة والمُلْك. وها هو ذا شقيقه بنيامين جنبه بمثابة ساعِدِه الأيمن.

٩٢- عَفْوُ يوسف عليه السّلام عن إخوته يذكّرنا بعفو محمّد صلّى الله عليه وسلّم عن مشركي قريش يوم فتح مكّة، الّذي تمّ لعشر ليالٍ بقين من شهر رمضان

المبارك سنة ثمانٍ هجرية (١) فصبح يوم الجمعة (٢) وكما كان يعقوب عليه السلام عن إخوته أكبر الأثر الحسن في نفوسهم، كان يعقوب محمد صلى الله عليه وسلم من كفار قريش أكبر الأثر الحسن، فقد دخلوا في دين الله تعالى أفواجاً.

٣- اهتم يوسف عليه السلام بأبيه يعقوب عليه السلام، وقد بلغ به الألم أقصى مداه ليعمى والده. وهنا نتبين لغة مشتركة بينهما عن طريق الوحي معجزة لكل منهما. ولا يفهم تلك اللغة المشتركة بينهما أحد سواهما.
وهذه هي مظاهر لغة الوحي المشتركة بينهما.

٤- يطلب يوسف عليه السلام من إخوته أن يذهبوا بقميص له كان يلبسه وهو مشتبع بعرقه عليه السلام، ويرجح أن القميص لم يغسل، والله تعالى أعلم، وأن يلقوا ذلك القميص على وجه يعقوب عليه السلام كي يرتد بصيرا.

٥- حينما تحركت القافلة من مصر وجد يعقوب عليه السلام في فلسطين ريح يوسف وليس رائحة يوسف عليه السلام. لقد أعمتن يعقوب عليه السلام عن وجود ريح يوسف، فلم يصدقوه آله ونسبوه إلى الخرف وفساد العقل من الكبر.

٦- يظن أن البشير الذي سبق بالقميص هو الأخ الأكبر،

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٣٧٠.
(٢) نور اليقين ٤٨.

الّذي نفّذ ما أمر به يوسف عليه السّلام، فألقى قميص يوسف الّذي فيه غرقه على وجه أبيه فارتدّ بصيرا.

إنّ الله تعالى لو أراد لبصر يعقوب عليه السّلام أن يعود إليه بقول كن لكان. ولكنّ الله تعالى جعل كلّ هذه الملابسات معجزات للنّبيّين الكريمين.

والحقيقة أن عرق يوسف في قميصه الّذي ارتدّ به بإذن الله تعالى بصر يعقوب عليه السّلام كان باعثاً لعالم مسلم نقّر الله تعالى بصيرته هو العالم الجليل الأستاذ الدّكتور عبد الباسط محمّد سيّد أن يهتدي بهذه المعجزة القرآنيّة، وأن يكتشف قطرة من العرق نالت حتّى الآن براءتي اختراع عالميّتين لعلاج المياه البيضاء في العين. وقد ثبت تفوّق هذه القطرة على كلّ قطرة أخرى للعين. كما ثبت أنّها ليس لها أيّ آثار جانبيّة ضارّة مطلقاً، ولله الحمد والمنّة. وبراءة الاختراع هذه تحت عنوان: براءة اختراع دوليّة لقطرة عيون قرآنيّة. قال تعالى (1): ﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾ صدق الله العظيم.

٣١- نفّذ يعقوب عليه السّلام وآله طلب يوسف عليه السّلام بإيحاء من الله تعالى بأن يتوجّهوا جميعاً إلى مصر. المكان الّذي سوف يُعبّر فيه رؤيا يوسف عليه السّلام.

---

(1) سورة ص ٨٨

٣٢ - لقد أكرم يوسف عليه السّلام إكرامًا عظيمًا كلًّا من والديه، وإخوته، وآل يعقوب.

٣٣ - حينما وصل يعقوبُ وآلُه إلى مصر خرج يوسف من المدينة لاستقبالهم، وضمّ إليه أبويْه، ودعا الله تعالى لهم بدخول مصر بإذن الله تعالى آمنين مُطمئنّين. جاء في الآية الكريمة التّاسعة والتّسعين من سورة يوسف قَوْلُه تعالى: ﴿فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾

٣٤ - لقد تمّ في قَصْرِ يوسف عليه السّلام في مصر تَعْبيرُ رؤيا يوسف عليه السّلام. ولا تَسَلْ عن مدى شكر يوسف عليه السّلام لربّه جلّ وعلا على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة. ولا تَسَلْ عن بِرّه بأبويه، وعن خُلُقِه العظيم. وبهذا المشهد ينتهي القسم الأوّل القَصَصيّ من السّورة الكريمة، وهو القِسْمُ الأكْبَرُ ومن أهمّ أهدافه تَسْلِيَةُ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريقٍ غير مباشر، وتَثْبيتُ فؤاده عليه الصّلاة والسّلام. وتَنْتَهي هذا القسم بالآية الكريمة الواحدة بعد المئة. وهذا المشهد الأخير يتجلّى في الآيتين الكريمتين من السّورة الكريمة، مئة ومئة وواحد. قال تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّدًا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقًّا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السّجن وجاء بكم من البدو من بعد

أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي. إن ربي لطيف لما يشاء. إنه هو العليم الحكيم. رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين﴾

ثم يأتي القسم الأخير التعقيبي القصير، من الآيات الكريمات ١٠٢-١١١ وفيه التسلية المباشرة وتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم.

٣٥- الحقيقة أن مجيء لفظة العرش والملك في المشهد الأخير تطرحان سؤالًا غاية في الأهمية وهو: حين ذكر كلٌّ من لفظة العرش والملك يشير إلى الفضل العظيم من الله تعالى على يوسف عليه السلام عزيز مصر الذي يساوي منصبه منصب رئيس الوزراء في لغة عصرنا، أم أن يوسف عليه السلام قد أكرمه الله تعالى بأن أصبح ملك مصر فعلًا، فلفظة الملك على لسانه عليه الصلاة والسلام، ولفظة العرش في الآية الكريمة إيماءً إلى سرير حكمه، تسمحان بمثل هذا الفهم؟ والله تعالى أعلم.

٣٦- يتصل بالسؤال السابق سؤالٌ آخر له علاقة بلفظة رسول التي جاءت في سورة غافر والتي جاء فيها اسم يوسف عليه السلام. جاء في الآية الكريمة الرابعة والثلاثين من سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون خطابًا للقوم قوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل

بالبيّنات فما زلتم في شكٍّ ممّا جاءكم به حتّى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا. كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب. والسؤال هو: هل يوسف عليه السلام نبيّ أو رسول؟ ومعروف أنّ درجة النبوّة الطريق الوحيد لدرجة الرسالة الأعلى، فكلّ رسولٍ نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولا. علمُ ذلك عند الله تعالى.

ومعروف أنّ النبيّ والرسول يشتركان في صفتين اثنتين هما الإيحاء إليهما، وكلام الملائكة لهما، ويزيد الرسول بأنّ له بعض الأحكام الخاصّة به أو المسائل المتعلّقة به، والتي كلّفه الله تعالى بإبلاغها.

قَصِيدَةُ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ عليه السّلام